التأويل

عند الفرق الإسلامية

للدكتور

بلقاسم محمد الغالي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم

بكلية أصول الدين والدعوة بالشارقة

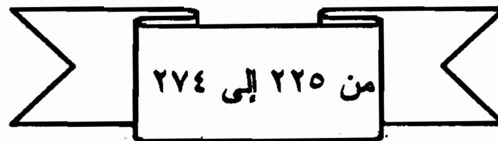

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور

بلقاسم محمد الغالي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة

التأويل عند الفرق الإسلامية

لله رب العالمين الذى أنزل على عبده الكتاب في أوجز لفظ وأعذب أسلوب فأعجزت بلاغته البلغاء وأعيت فصاحته الحكماء والصلاة والسلام على أفصح الناطقين وأبلغ المتكلمين سيدنا محمد بدر التمام ومسك الختام وسيد الأنام عليه الصلاة والسلام.

ورضى الله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد...

غالباً ما ينصب اهتمام الباحثين في نشأة الفرق على تلمس الأسباب السياسية والاجتماعية التي قد تساعد على تفسير هذا الموقف من قبل هذه الفرقة أو تشرح أصلاً من أصولها. وقلما ينتبهون إلى ما قد يكون وراء

الخلافات الكلامية من أثر في نمو الأصول الفكرية والمبادئ العقدية للفرق الإسلامية.

إن البدعة التي نشأت عنها جميع البدع وتشققت عنها كل الفرق إنما هي التأويل ، ولعلنا لا نعدو الصواب إذا اعتبرنا الفرق الإسلامية أول من طرح في الإسلام مشكلة القراءة والتأويل وانتبه إلى مستويات التعبير والدلالات اللغوية وخاصة الوعي بخطورة انتشار القراءات الحرفية للنصوص الشرعية. هذه القراءات التي غالبا ما تضمر نزعة تشبيه غليظ ، وتصر على التعامل مع أي خطاب لغوي ، خاصة الخطاب الشرعي في حدود المستوى المادي المستفاد من ظاهر النص المنطوق. الأمر الذي من شأنه أن يلحق ضررا كبيرا بفهم النص الشرغي.

لذلك عمدت الفرق الإسلامية إلى التسلح بمنهج التأويل لخدمة أصولها الفكرية ولتطويع النصوص بما يتماشى مع نحلتها بل هناك من الفرق من عمد إلى لي أعناق الآيات القرآنية خدمة لنحلته.

والغرض من هذا البحث لفت الأنظار إلى ما في النص القرآني من عمق. وإلى ما في العقل الإسلامي من قدرة على الاستنباط والتأويل إلى درجة ترقى إلى الإعجاب. ثم تصيبك الدهشة إزاء العجز أمام تأويل النصوص تأويلا رصينا لاستنباط الأحكام ولفهم القضايا المعاصرة ولحل الإشكاليات الواردة على المسلمين.

وسيعرض هذا البحث إلى نماذج من التأويل عند الفرق الإسلامية علـــى اختلاف مشاربها مبرزاً قدرة كل فرقة على خدمة أغراضها المذهبية.

"وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"

كتبه
أ.د/ بلقاسم محمد الغالي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة

التأويل في إطاره الإسلامي

مفهوم التأويل:

١) لغــــــة:

إن التأويل في المفهوم اللغوي يعني الترجيع والصيرورة بالشيء إلـــى أصله ، جاء في كتاب التعريفات: التأويل في الأصل: الترجيع[١]، والتـــأويل مصدر "أوّله" إذا أرجعه إلى الغاية المقصودة ، والغاية المقصودة من اللفـــظ هي معناه وما أراده المتكلم به من المعاني. والمعاني التي ذكرتـــها المعـــاجم اللغوية العربية وأخص بالذكر منها: لسان العرب المحيط[٢] وتاج العروس من جواهر القاموس (شرح القاموس المحيط للفيروزبادي)[٣] والمعجم الوســيط[٤]. فالمعاني في هذه المعاجم لمادة (الأول) ، (والتأويل) والتي ترجع في جميعــها إلى معنى "الترجيع".

ومن صيغة "أوّل يؤول تأويلاً" التأويل: مرادف للتفسير في أشهر معانيــه اللغوية. قال صاحب القاموس: "أول الكلام تأويلا": "دبره وقدره وفسره". جاء في تاج العروس تبيينا وتعليقا على هذا القول ما يلي: وظاهر المصنـــف (أي

---

(١) الجرجاني (أبو الحسن علي بن محمد ت ٨١٦ هـ): التعريفات ، بـــاب التــاء ص ٢٨ ، ط الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧١ م.

(٢) ج ١ ، ص ١٣٠ مادة "الأول" ط ونشر "لسان العرب ، بيروت ، بدون تاريخ.

(٣) ج ٧ ص ٢١٥ فصل همزة من باب اللام. ط أولى المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦-١٣٠٧ هـ

(٤) ج ١ ، ص ٣٢ مادة "الأول" ط مصر شركة مساهمة مصرية مجمع اللغة العربية ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م.

صاحب القاموس): إن التأويل والتفسير واحد. وفي العباب[1]: التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء. وقال غيره التفسير شرح ما جاء مجملاً من القصص في الكتاب الكريم وتقريب ما تدل عليه ألفاظه العربية وتبيين الأمور التي أنزلت بسببها الآي ، وأما التأويل فهو تبيين معنى المتشابه ، والمتشابه هو ما لم يقطع بفحواه من غير تردد فيه وهو النص. وقال الراغب[2]: التأويل ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه قولاً كان أو فعلاً. وفي جمع الجوامع ، هو حمل الظاهر على المحتمل المرجوع فإن حمل لدليل فصحيح أو لما يظن دليلاً ففاسد . أو لا شيء فلعب ، لا تأويل ، وقال أيضاً: التفسير أعمّ من التأويل. وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني ، كتأويل الرؤيا. والتأويل يستعمل في الكتب الإلهية ، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها. والتفسير يستعمل أكثر في مفردات الألفاظ والتأويل أكثره يستعمل في الجمل[3]. ولم يكن لفظ التأويل غريب الاستعمال بل ورد في سياق القرآن وفي الأحاديث.

٢) التأويل في القرآن والسنة:

وقال ابن منظور في معجمه: وفي حديث ابن عباس "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل "وقال ابن الأثير: هو من آل الشيء يؤول إلى كذا أي رجع وصار إليه والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما

---

(١) العباب الزاخر في اللغة للإمام حسن بن محمد الصغاني مات سنة ٦٥٠ هـ.

(٢) الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد بن الفضل): المفردات في غريب القرآن ، مادة (تأويل).

(٣) المصدر نفسه.

يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ. ومنه حديث عائشة – رضي الله عنها – كان النبي صلى الله عليه وسلّم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم وبحمدك" يتأول القرآن يعني أنه مأخوذ من قوله تعالى: :فسبح بحمد ربك واستغفره"[1] ، قال ابن منظور: التأويل فهو التفعيل من أوّل يؤول تأويلا. وثلاثيه: آل يؤول أي رجع وعاد[2].

٣) لفظ التأويل الوارد في القرآن:

لقد ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم على معان مختلفة مثل قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[3]، وأيضاً ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾[4]، أضف إلى ذلك الآية التي تقرر وجود المتشابه في القرآن إلى جانب المحكم ، وتطرح مسألة التأويل طرحاً بدا فيه الاختلاف بين الفرق الإسلامية واضحاً كما سنرى، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ

---

(١) سورة النصر الآية (٣).

(٢) لسان العرب: مادة (آل) ، ج ١ ، ص ١٣٠.

(٣) سورة يونس الآية (٣٩).

(٤) سورة ألأعراف الآية (٥٣).

كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[١]، فالتأويل في هذه الآية بمعنى التفسير والتعيين. ومثل قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٢]، فالتأويل بهذه الآية بمعنى العاقبة والمصير ، ومثل قوله في يوسف عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[٣].

ومن جميع ما تقدم يكون معنى التأويل: الترجيع والمراد بالترجيع: إرجاع الشيء إلى الغاية المقصودة منه ، والغاية المقصودة من اللفظ هي معناه وما أراده المتكلم به من المعاني.

والتأويل ملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل ، والترجيح يعتمد على الاجتهاد ، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ، واستنباط لغة العرب واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية ومدلولاتها في المعاني من كل ذلك[٤].

٤) التأويل اصطلاحاً:

التأويل كما عرفه ابن تيمية: صرف اللفظ عن المعنى الراجع إلى المعنى المرجوع لدليل يقترن به. والمتأول عليه وظيفتان: بيان احتمال اللفظ

---

[١] سورة آل عمران الآية (٧).

[٢] سورة النساء الآية (٥٩).

[٣] سورة يوسف الآية (٦).

[٤] إبراهيم بن حسن بن سالم: قضية التأويل في القرآن الكريم ، بين الغلاه والمتشددين، ط دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ١٤١٣ هـ ١٩٩٣م، ص ٣٩-٤٠.

للمعنى الذي ادّعاه ، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر[1]، وذكر العلامة الآلوسي المراد من التأويل فقال إنه إشارة قدسية ومعارف سبحانية تتكشف من سحف العبادات للسالكين، وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين فالتأويل ينصب على ما كان مأخوذاً بالإشارة[2]، فهدف التأويل عندئذ: بيان المعنى المراد من نص القرآن والسنة اعتماداً على معطيات اللغة العربية في استعمالاتها المختلفة، وبناء على دلالاتها الوظيفية داخل النص وفي سياق النظم المقصود. كما أنه يهدف إلى إبراز الأحكام في حدود قوانين اللغة العربية وهو من جانب آخر لدى المتصوفة يتمثل في التأويل الإشاري والكاشف عن الحقائق والمستغني عمّا في أيدي الخلائق[3].

٥) التأويل في اصطلاح الفرق الإسلامية:

أ. فعند المتكلمين:

التأويل هو صرف نصوص ما تشابه من الكتاب والسنة عن ظاهره إلى معان تتفق وتنزيه الله تعالى عن المشابهة والمماثلة في الذات عند المعتزلة الذين ينفون الصفات عن الذات العلية وذلك لمنافاتها – حسب رأيهم – للوحدانية وفي الذات والصفات عند الأشاعرة والماتريدية الذين يثبتون الصفات إثباتاً لا ينافي وحدانية الذات. وهذا الذي ذهب إليه الخلف هو مقابلة

---

(١) أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوى ج ١٣، ص ٢٨٨-٢٩٠، مكتبة المعارف الرباط – المغرب، دون تاريخ.

(٢) الآلوسي: روح المعاني ، مج (١-٢) ج ١ ، ص ٥٠ ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت ، لبنان.

(٣) القشيري (عبد الكريم بن هوازن) الرسالة القشيرية ، ط دار الفكر العربي – بيروت ص ١٢٧.

ما ذهب إليه السلف من التفويض والإمساك عن تعيين معنى خاص بواسطة التأويل وقديماً قيل: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أحكم.

ب. وعند الأصوليين:

التأويل هو استقراء قواعد الأحكام الشرعية واستقراء عللها وأحكامها التشريعية من النصوص التي قررت المبادئ والأهداف والعودة بجميع ذلك إلى ما يستفاد منها من كليات عامة، وأصول كلية، ومن عمومها تستنبط وتستمد أحكام القضايا الجزئية ومن أصولها تأخذ الفروع وتستخرج المعطيات. فالغاية من التأويل عندهم هي تأصيل الأحكام الشرعية، وإقامة أسسها العامة وقواعدها الكلية من المصادر التشريعية لبيان المقصد العام للشارع من تشريعه للأحكام.

ج. وعند الصوفية:

المفعمة قلوبهم بنور الذوق الروحي، والمستنيرة عقولهم بعطاء العلم اللدني والمعرفة الإشرافية، التأويل كما تقدم ذكره للعلامة الآلوسي[1]، هو إشارة قدسية ومعارف سبحانية تنكشف من سجف العبادات للسالكين وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين. فغاية الصوفي الواعي من التأويل هي كشف ما وراء النص القرآني والنبوي من إيحاء غيبي لا يشرق نوره إلا في القلوب المطمئنة المفعمة بالإيمان. ولا تدرك ما في إشارته من معارف ربانية إلا العقول الصافية التي لا تحجبها عن وضوح الرؤية سجف المادة ولا أشباح صورها الجسمانية المشغولة برؤية مظهرها عن إدراك جوهرها.

---

[1] الألوسي: روح المعاني مج (١-٢) ج ١، ص ٥، ط دار إحياء التراث – بيروت.

د. وعند الفلاسفة الإسلاميين:

التأويل هو إخراج اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي. فغاية الفلاسفة من التأويل هي ميز الحقيقة من الدلالة المجازية الحامل لكليهما النص ، وذلك للوصول إلى المراد بطريق اليقين المتولد من الجمع بين المعقول والمنقول وهذا ما يدل عليه كلام ابن رشد الذي يقول: "وإذا كان الفقيه يفعل هذا – أي إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية – في كثير من الأحكام الشرعية ، فكم بالحري أن يفعل ذلك صاحب علم البرهان؟ فإن الفقيه إما عنده قياس ظني ، والعارف عنده قياس يقيني"[1].

هـ. وعند الباطنية:

خلاصة رأيهم في التأويل: إن الله تعالى جعل معاني الدين في الموجودات ، لذا يجب أن يستدل بما في الطبيعة ، وبما على وجه الأرض ، على إدراك حقيقة الدين ، وقالوا إن المخلوقات قسمان: قسم ظاهر للعيان ، وقسم باطن خفي. فالظاهر يدل على الباطن وما ظهر من أمور الدين من العبادة العملية ، وما جاء في القرآن هي معان يعرفها العامة ، ولكن لكل

(1) ابن رشد (أبو الوليد): فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال. المطبعة الكاثوليكية – بيروت ، ص ٣٥.

فريضة من فرائض الدين تأويلا باطناً لا يعلمه إلا الأئمة ، وكبار حججهم وأبوابهم ودعاتهم[١].

ومن وحي هذه النظرية فالتأويل عندهم هو إلغاء ظاهر النص وعدم اعتبار دلالته اللغوية والتشريعية. ثم الإغراب في تصيّد باطن له يتماشى وهواهم ، وما يريدون من ترويج ضلالات بين الناس. فغاية الباطنية من التأويل إفراغ النص القرآني والسني من محتواه وشحنه بما يمليه عليهم هواهم.

هذه المعاني العديدة لمعنى التأويل تجعل الأنظار مختلفة حوله كل يخضع النص إلى تخصصه واتجاهاته. فاللغوي يخدم النواحي اللغوية والبلاغي يبرز اللفتات البلاغية والفيلسوف ينصاع للمبادئ العقلية والصوفي يكرس الإشارات الذوقية والباطني يهتم بنحلته الباطنية.

تطور التأويل:

إن التأويل بدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذه عنه صحابته رضوان الله عليهم وبلغوه إلى من بعدهم من العلماء. وسيستمر التأويل إلى اليوم وإلى الغد وإلى الأبد ما دام القرآن الكريم وما دامت السنة النبوية الشريفة وما دام الفكر الإسلامي يعمل أعلامه الراسخون في العلم على تدبر القرآن وعلى تأويله واستخراج أبعاد معانيه.

---

(١) أبو يعقوب السجستاني: الينابيع ، ط المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر – بيروت لبنان ١٩٦٥ ، ص ١٣.

غير أن التأويل في عهود ما بعد النبوة كان منه المقبول وكان منه المرذول البعيد عن روح الإسلام. أما التأويل المحمود فكان هدفه الوصول إلى اليقين العلمي وهذا ما جاء في دعاء رسول الله لابن عباس: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل". وأما التأويل المذموم فكان هدفه تشويه الإسلام وإظهار المطاعن وتقويم دعائم التوحيد. وهذا ما حذّر منه عمر بن الخطاب – رضي الله عنه: "حدث أبو حازم عن أبيه أن عمر بن الخطاب قال: ما أخلف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ولا من فاسق بيّن فسقه ، ولكني أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أزلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله"[1].

مدارس التأويل وفرقه:

١) مدرسة الرسول ﷺ في التأويل:

أول مدرسة انطلق منها التأويل هي مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد غطت هذه المدرسة بنشاطها وتأويلها جميع جوانب الإسلام العقيدية والتشريعية والأخلاقية ، وكان منه التأويل القريب والتأويل البعيد.

فمثال التأويل القريب ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، يتأول القرآن أي يعمل بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾[2]، فقد جمع في دعائه التسبيح والحمد وذكر لفظ الرب وطلب المغفرة فقولها (يتأول)

---

[1] ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ، ج ١ ص ٢٣٨ ، ط ثانية – المطبعة السلفية – المدينة المنورة ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ – ج١ ، ص ٢٣٨.

[2] سورة النصر الآية (٣).

صريح في أنه عليه الصلاة والسلام فسّر الآية بالظاهر منها وهذا من التأويل القريب.

ومثال التأويل البعيد ما أخرجه أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: "لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح ، قال رسول الله ﷺ : نعيت إلى نفسي أني مقبوض في تلك السنة"[١].

ومثاله أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون عليّ وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي ومنها ما دون ذلك ، وعرض عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره" قالوا فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال "الدين" "[٢].

وعن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: "بينما أنا نائم أوتيت بقدر لبن فشربت حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب، قالوا فما أولته يا رسول الله؟ قال "العلم" "[٣].

وعن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله (غير المغضوب عليهم) قال "هم اليهود" (ولا الضالين) قال "النصارى هم الضالون"[٤].

---

[١] السيوطي (جلال الدين): الدر المنثور في تفسير بالمأثور ، ج ٢ ، ص ١٠ ،.

[٢] ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ، طبع ونشر المطبعة السلفية ج ١ ، ص ٧٣.

[٣] المرجع نفسه ج ١ ، ص ١٨٠.

[٤] ابن كثير: التفسير ، طبعة كتاب الشعب ، ج ١ ص ٤٦.

وأخرج الإمام أحمد عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾[١] شق ذلك على الناس وقالوا: يا رسول الله فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: "إنه ليس الذي تعنون؟ ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٢] إنما هو الشرك"[٣].

وأخرج البزار والطبراني في الأوسط والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن عمرو قال: جاء فئام الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله زعم أبو بكر أن الحسنات من الله والسيئات من العباد ، وقال عمر: الحسنات والسيئات من الله فتابع هذا قوم وهذا قوم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأقضينّ بينكما بقضاء إسرافيل بين جبرائيل وميكائيل ، إن ميكائيل قال بقول أبي بكر ، وقال جبرائيل بقول عمر: فقال جبرائيل لميكائيل إنا متى تختلف أهل السماء يختلف أهل الأرض فلنتحاكم إلى إسرافيل فتحاكما إليه فقضى بينهما بحقيقة القدر خيره وشره حلوه ومره كله من الله ، ثم قال: يا أبا بكر إن الله لو أراد أن لا يعصى لم يخلق إبليس فقال أبو بكر: صدق الله ورسوله"[٤].

---

(١) سورة الأنعام الآية (٨٢).

(٢) سورة لقمان الآية (١٣).

(٣) ابن كثير: التفسير ج ٣ ص ٢٨٨.

(٤) السيوطي: الدر المنثور ، ج ١ ص ٩٤.

فهذا الأثر الذي اشتمل على تأويل رسول الله ﷺ المستفاد من قوله"لو أراد الله أن لا يعصى لم يخلق إبليس" وهو تأويل يتعلق بقضية قد ثار الجدل حولها وما زال ، وللوصول إلى اليقين فيها افترقت الأمة حولها إلى مذاهب وفرق وهي قضية القضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره وما ينسب إلى الله ، وما ينسب إلى العبد ، من حيث العقيدة وهي قضية قد أثيرت حسبما جاء في الأثر وقت الرسول صلى الله عليه وسلم وكان رأي أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – هو أن الشر من كسب الإنسان وإن الخير من الله ، وهذا قد تأوله من قوله تعالى: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

وكان رأي عمر –رضي الله عنه– يخالف رأي أبي بكر أن الحسنات والسيئات جميعاً من الله وبقضائه وقدره وأن الإنسان لا كسب له في ذلك. وهذا قد تأوله من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1] ، ثم كانت إجابة الرسول عليه الصلاة والسلام وتوله الذي يؤيد ما ذهب إليه عمر وهي قضية شائكة تشعبت فيها الآراء وتاهت أفكار المفكرين وعقول المتفلسفين.

٢) نماذج من مدرسة الصحابة – رضوان الله عليهم – في التأويل:

وقد تخرج على يد رسول الله في مجال التأويل عدد كبير من صحابته رضوان الله عليهم وقد عدهم ابن القيم وقسمهم إلى مكثرين منه ومتوسطين ومقلين[2] يأتي في مقدمتهم عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– فقد تأول

(١) سورة الصافات الآية (٩٦).

(٢) أعلام الموقعين ، ط دار الجيل ، ج ١ ص ١٢-١٤

الآيات وأفتى بأحكام استنتجها من كتاب الله العزيز من مقاصد الشريعة الغراء من ذلك منعه بيع أمة إذا أصبحت أم حرّ، وأبان للمسلمين تحريم ذلك، أخرج ابن المنذر والحاكم عن بريدة –رضي الله عنه– إذ سمع صائحاً فقال يا "يرفأ"* انظر ما هذا الصوت؟ فنظر ثم جاء فقال: جارية من قريش تباع أمها ، فقال عمر –رضي الله عنه– ادع لي المهاجرين والأنصار ، فلم يمكث إلا ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فهل تعلمون فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم القطيعة؟ قالوا: لا قال: فإنها أصبحت فيكم فاشية ثم قرأ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1] وأي قطيعة أقطع أن تباع أم امرئ فيكم ، وقد أوسع الله لكم ، فقالوا: فاصنع ما بدا لك ، فكتب في الآفاق أن لا تباع أم حرّ فإنها قطيعة رحم وأنه لا يحل[2]. ومما يدل على سرعة فهم عمر وقدرته على التأويل ما روي من أن الصحابة فرحوا حينما نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾[3] لظنهم أنها مجرد أخبار وبشرى بكمال الدين ، ولكن عمر بكى وقال ما بعد الكمال إلا النقص مستشعراً من الآية ومتأولاً لها

* (يرفأ): اسم غلام لعمر.

[1] سورة محمد الآية (٢٢).

[2] السيوطي: الدر المنثور ، ج ٦ ص ٦٤.

[3] سورة المائدة الآية (٣).

بأنها نعي النبي ﷺ وقد كان مصيباً فيما ذهب إليه من تأويل وفهم إذ لم يعش النبي بعدها إلا واحداً وثمانين يوماً كما روي[1].

فانظر إلى هذه المدرسة وما امتازت من جسارة في التأويل وذلك لفهمها العميق لمقاصد الشريعة وأهدافها وغاياتها.

ومن مدرسة الصحابة بمنهجها وأسلوبها في التأويل تكونت مدارس التابعين وتشعبت الفرق وتعددت المذاهب.

٣) نماذج من التأويل عند الخوارج*:

إن البدعة التي نشأت عنها جميع البدع وتشققت عنها كل الفرق إنما هي التأويل. ويبدو أن الخوارج هم أول من فتح باب التأويل في تاريخ الفرق الإسلامية وفي تاريخ هذه الملة ، وكان لتأويلهم نتائج عملية خطيرة أعقبتها بدورها آراء نظرية على عكس ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن الخوارج أهل نص وحرفية وأصحاب كلمة ظاهرة وما زعمه المستشرق برنوف وقد ردّ عليه فلهاوزن وعلى زعمه أن الخوارج قوم بداة[2].

لقد صور لنا ابن رشد تصوير معبراً عما سببه التأويل من الفرقة والبعد عن الشرع ، فالشرع في الصورة التي أمدنا بها بمثابة دواء ناجح ، وصفه طبيب ماهر لحفظ صحة الناس، فصادف أن استعمله رجل فاسد

---

(١) الشاطبي: الموافقات تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط القاهرة بدون تاريخ ، ج ٣ ص ٢٥٦.

* الخوارج: نشأت الخوارج زمن علي -رضي الله عنه- وافترقوا إلى فرق مثل النجدات والأزارقة وغيرهم. أنظر د. عمار الطالبي: آراء الخوارج ، طبعة شركة التوزيع - الجزائر ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨.

(٢) يوليوس فلهاوزن: أحزاب المعارضة في صدر الإسلام: الخوارج والشيعة ، ص

المزاج رديء الطبع فلم يلائمه ، فأول تركيب ذلك الدواء ، بأن في اسمه استعارة ومجازا ، وإنه إنما أريد به تركيب آخر ، وبذلك أدخل عنصراً جديداً في ذلك التركيب على أنه مقصود من قبل الطبيب فاستعمله أناس فإذا به كان سبباً في إفساد أمزجتهم ، ثم أتى أناس آخرون فزعموا أن هذا الدواء يشمل عناصر أخرى ، قصدها الطبيب إلا أن المركب للدواء لم يدخلها في حسابه فعمدوا إلى تغيير تركيبه عن طريق تأويل ثان.

وهكذا كلما زاد إفساد ذلك الدواء لأمزجة الناس ، جاء متأول ثالث ورابع فأول وكل تأويل من تأويلاتهم يلحق بالناس ضرراً جديداً ، إلى أن فسد ذلك الدواء تماماً وخرج عن غايته وغرضه الذي وضع من أجله ، وهذه الصورة يشبهها ما آل إليه المسلمون من الفرقة الواقعة في شريعتهم ، إذ كل فرقة تأولت بتأويل لم تؤول به الأخرى ، وبذلك مزقوا الشرع كل ممزق وبعدوا به عن غرضه[١] ولقد تفطن ابن رشد بما له من بصارة نافذة في الشريعة وإحاطة بتاريخ العقائد الإسلامية ومناهج الباحثين فيها أو المعتقدين لها من مختلف الفرق إلا أن أول من شرع في التأويل وحمل النصوص على غير ظاهرها إنما هم الخوارج فيقول: "وأول من غير هذا الدواء الأعظم هم الخوارج ثم المعتزلة بعدهم ثم الأشعرية ثم الصوفية ثم جاء أبو حامد فطمّ

---

[١] ابن رشد: مناهج الأدلة في عقائد الملة مع مقدمة نقدية لمدارس علم الكلام وتحقيق للنص قدم بها محمود قاسم ط ٢ ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٤ ، ص ١٨٠-١٨٢.

الوادي على القرى"[1] فهم الذين فتحوا الباب للمعتزلة والأشاعرة وغيرهم من الفرق المؤولة. يقول ابن قيم الجوزية في نونيته:

هذا واصل بلية الإسلام من ❁ ذوي التحريف والبطلان

وهو الذي فرّق السبعين بل ❁ زادت ثلاثا قول ذي البرهان

وهو الذي قتل الخليفة جامع القر ❁ آن ذي النورين والإحسان[2]

كما تفطن إلى أن الخوارج أولوا فقال:

من لي بشبه الخوارج فقد كفروا ❁ بالذنب تأويلا بلا إحسان[3]

ويمكن القول بأن الخوارج سبقوا إلى التأويل بجماعة من أهل الردة. وكذلك فإن صبيغ بن عسل القشعبي التميمي في عهد عمر بن الخطاب ، كان يطرح على الناس الغوامض من الأسئلة ، ويسأل عن المتشابه من آيات القرآن فطلبه عمر ، وضربه بعراجين النخل حتى دمي رأسه وقال: "حسبك يا أمير المؤمنين قد ذهب الذي كنت أجده في رأسي" وقرر نفيه إلى البصرة واعتبر من الزائغين ، ولذلك استحل ضربه وحبسه ، وأمر بعدم مخالطة الناس إياه حتى تاب[4].

وإن سبب قتل عثمان فيما بعض الباحثين يرجع إلى التأويل وتبين ذلك من تأويل الخوارج لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ

---

(1) المرجع نفسه ، ص ١٨٢.

(2) د. محمد خليل الهراس: شرح النونية ، مطبعة الإمام ، القاهرة ، دون تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٥٧.

(3) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٣١٧.

(4) ابن تيمية مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن شرف الدين – بمباي، الهند ١٣٧٤/١٩٥٦، ص ٣٣٧. وانظر: زاهد الكوثري، مقدمة كتاب التبصير في الدين، ص ٢.

هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[1] وبتأويل هذه الآية نفسها خرجوا على علي[2] ، وعندما ذكرت الخوارج وقراءتهم لابن عباس قال: "يؤمنون بمحكمه ويضلون عن متشابهه"[3]. وقال علي رضي الله عنه في قتلة عثمان: "تأول القوم على القرآن ووقعت الفرقة وقتلوه في سلطانه ، وليس على ضربهم قود"[4]. وسأل علي ابن عباس عن الخوارج فقال: "أرأيتهم منافقين؟ قال: والله ما سيماهم بسيما منافقين ، إن بين أعينهم لأثر السجود وهم يتأولون القرآن"[5]. ويذكر ابن عبد البر[6] أن الخوارج قتلوا الأطفال وغلوهم في المراجل تأويلا لقوله تعالى: "إنك أن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفاراً"[7].

ومن نماذج تأويلات الخوارج الغالبة المفرطة في مجاوزة الظاهر والبعد عن النص ودلالته أنهم أولوا قوله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾**[8] بأنه نزل في علي وفي وصفه[9].

---

(1) سورة المائدة الآية (٤٤).

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام ، ط مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٦٨ ، ج ٢ ، ص ١٣١.

(3) الشاطبي: الاعتصام ، ج ١ ، ص ٥٦ وفي ج ٣ ص ٢٤.

(4) نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ، ص ٣١٢-٣١٣.

(5) ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة ، ج ٢ ، ص ٣١٠.

(6) مختصر جامع بيان العلم وفضله ، ص ١٦٤.

(7) سورة نوح الآية (٢٨).

(8) سورة البقرة الآية (٢٠٤).

(9) الشهرستاني: الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٢٠.

ومن هذا كله يبدو لنا بوضوح كيف أن الخوارج ليسوا مجـــرد بـــدو وليسوا أهل ظاهر نص وإنما هم أصحاب تأويل بل إنهم من أوائل من فتـــح بابه للمسلمين على مصراعيه.

٤) نماذج من التأويل عند الجهمية*:

تنسب هذه الفرقة إلى مؤسسها جهم بن صفوان (ت ١٢٨ هـ) ويـــرى بعض الباحثين أن الجهمية أول من طرح في الإسلام مشكلة التأويل وقد انتبـه منذ وقت مبكر إلى هذا الطرح. ينطلق جهم بن صفوان من أنه "لا يجــوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه"(١) ومن ثم فإن أخص خصائص الله تعالى أنه ذات وليس شيئاً أبداً ، ما دام مفهوم الشيئة ينطبق فـــي أصلـــه اللغوي على ما كان قابلاً للرؤية واللمس. ولهذا يؤكد جهم أن الله تعالى ليـــس شيئاً. وهي الصيغة التي أثارت ردود فعل قوية من طرف أهل السنة ، الذيـــن اعتبروا ذلك إفراطاً في النفي ومجازفة أدّت بصاحبها إلى الكفر الذي عطـــل الذات عن الصفات. وهكذا يظهر أن الجهم نفى الصفات البشرية بعيداً عـــن التشبيه وإثباتاً لحقيقة التنزيه الذي أثبته الله تعالى لنفسه في قولـــه: ﴿ليـــس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ فالآية نفت المثلية والتشبيه ولكنها أثبتت لله تعالى الكمال في الصفات.

---

* الجهمية: فرقة تنسب إلى جهم بن صفوان (ت ١٢٨ هـ) أشهر آرائها نفي الصفات وجبريـــة الأفعال. انظر الشهرستاني: الملك والنحل ص ١١٠.

(١)الشهرستاني: الملك والنحل على هامش الفصل لابن حزم ، ج ١ ، ص ١٠٩.

فالجهمية إذن قد أولت النص بما يتلاءم مع طروحتها لذلك ، يرى الدكتور النشار أن الجهمية أول من ابتدع عملية التأويل ثم انتقل منها إلى المعتزلة ثم إلى الشيعة الاثني عشرية ، وما وصلتنا من أخبار نشأة التأويل قليل ، وأشار إلى أن بعض الباحثين يزعم أن التأويل عنصر دخيل جاء إلى ثقافة المسلمين من عناصر أجنبية عنهم ، ولم ينشأ في بيئة إسلامية محضة ومن واقع المسلمين الاجتماعي وأحداثهم التاريخية والسياسية[١].

٥) نماذج من التأويل عند المعتزلة*:

كلف المعتزلة بالتأويل لجعل القرآن الكريم يتماشى وأصولهم الاعتقادية ، فقد فسروا قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ۝إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾[٣] بما يتماشى ومذهبهم في نفي الرؤية ، ويحاولون بكل ما يستطيعون أن يطبقوا مبدأهم اللغوي حتى يتخلصوا من الورطة التي أوقعهم فيها ظاهر اللفظ القرآني فقالوا في محاولتهم: إن النظر إلى الله معناه الرجاء والتوقع للنعمة والكرامة ،

---

(١) د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج ١ ، ص ٣٥١.

* المعتزلة: فرقة نشأت في القرن الثاني الهجري على يد واصل بن عطاء تنحصر مقولتها في الأصول الخمسة: التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (انظر: القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة تحقيق عبد الكريم عثمان).

(٢) سورة القيامة الأيتان (٢٢-٢٣).

(٣) سورة المطففين الأيتان (٢٢-٢٣).

واستدلوا على ذلك بأن النظر إلى الشيء في العربية ليس مختصاً بالرؤية واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

وإذ نظرت إليك من ملك ۞ والبحر دونك زدتني نعما

وقد أجابهم عن هذا التفسير ورد تأويلهم فخر الدين الرازي فقال: أما قوله (أي المفسر المعتزلي): النظر جاء بمعنى الانتظار ، قلنا لنا في الجواب مقامان: **الأول:** إن النظر الوارد بمعنى الانتظار كثير في القرآن ، ولكنه لم يقرن البتة بحرف "إلى" كقوله تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾[1] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ﴾[2].

والذي ندعيه أن النظر المقرون بحرف (إلى) المعدي إلى الوجوه ليس إلا بمعنى الرؤية ، أو بالمعنى الذي يستوعب الرؤية ظاهراً ، فوجب أن لا يرد لمعنى الانتظار دفعاً للاشتراك ، وأما قول الشاعر: "وإذ نظرت إليك من ملك" فالجواب أن قوله: (وإذا نظرت إليك ، لا يمكن أن يكون المراد منه الانتظار ، لأن مجرد الانتظار لا يستعقب العطية بل المراد من قوله: "وإذ نظرت إليك" وإذا سألتك لأن النظر إلى الإنسان مقدمة المكالمة فجاز التعبير عنه به وقول كلمة (إلى) ههنا ليس المراد منه حرف التعديل واحد الالاء ، قلنا إن (إلى على هذا القول تكون اسما للماهية التي يصدق عليه أنها نعمة ، فعلى هذا يكفي في تحقق مسمى هذه اللفظة أي جزء فرض من أجزاء النعمة . وإن كان في غاية القلة والحقارة وأهل الثواب يكونون في جميع المواقف

---

(1) سورة الحديد الآية (١٣).

(2) سورة البقرة الآية (٢١٠).

القيامة في النعم العظيمة المتكاملة ومن كان حاله كذلك يمكن أن يبشر بأنه يكون في توقع الشيء يطلق عليه اسم النعمة. **المقام الثاني:** أن النظر المعدي بحرف (إلى) المقرون بالوجوه جاء في اللغة بمعنى الانتظار لكن لا يمكن حمل هذه الآية عليه، لأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة في الدنيا فلا بد وأن تحصل في الآخرة شيء أزيد منه حتى يحسن ذكره في معوض الترغيب في الآخرة ولا يجوز أن يكون ذلك هو أقرب الحصول ، لأن تلك معلوم بالعقل فبطل ما ذكروه من تأويل[1] وفي تصرفهم في القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم وتعويضها بالقراءات الشاذة ، أو غير المقبولة لتتماشى مع مذهبهم ولا تصادمه لا يهمهم من أنها قراءة لا تتفق وما تواتر من القراءات عن رسول الله ﷺ .

من تصرفهم هذا ما ذهب إليه بعض المعتزلة في تفسيره وتأويله لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[2] وذلك عندما رأى اللفظ القرآني حيث جاء المصدر مؤكداً للفعل ، رافعا لاحتمال المجاز ، لا يتفق مع مذهبه النافي لصفة الكلام عن الله حوّل النص من القراءة المتواترة عن رسول الله إلى قراءة تتماشى مع مذهبه ، فقرأ نص الآية هكذا: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ بنصب الجلالة على أنه مفعول ورفع موسى على أنه فاعل.

---

[1] الرازي: التفسير الكبير مج (٢٩-٣٠) ج ٣٠ ، ص ٢٢٨-٢٢٩.

[2] سورة النساء الآية (١٦٤).

وقد أثبت هذا الزمخشري في كشافه فقال مفسراً لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وعن إبراهيم ويحيى بن ثابت أنهما قرأ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ﴾ بالنصب ومن بدع التفاسير أنه من الكلم وإن معناه وجرّح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن[1].

وقد علّق أحمد بن المنير الإسكندري فقال: قال محمود – يعني الزمخشري – "ومن بدع التفاسير أن كلّم من الكلم ... الخ"، قال أحمد "يعني نفسه" "وإنما ينقل هذا التفسير عن بعض المعتزلة لإنكارهم الكلام القديم الذي هو صفة الذات ، إذ لا يثبتون إلا الحروف والأصوات قائمة بالأجسام لا بذات الله تعالى ، فيرد عليهم بجحدهم كلام النفس إبطال خصوصية موسى عليه السلام في التكليم ، إذ لا يثبتونه إلا بمعنى سماعه حروفاً وأصواتاً قائمة ببعض الأجرام، وذلك مشترك بين موسى وبين كل سامع لهذه الحروف. حتى المشترك الذي قال الله فيه: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[2] فيضطر المعتزلة إلى إبطال الخصوصية الموسومة بحمل التكليم على التحريم وصدق الزمخشري وأنصف: "إنه لمن بدع التفاسير التي ينبو عنها الفهم ولا يبين إلا الوهم والله الموفق"[3] وعلّق الفخر الرازي عن هذا المسلك من تفسير بعض المعتزلة فقال: وعن إبراهيم ويحيى بن ثابت أنهما قرأ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾ بالنصب، وقال بعضهم وكلّم الله معناه وجرح الله موسى بأظفار المحن ،

---

(1) الزمخشري: الكشاف ، ط دار الكتاب العربي – بيروت ، لبنان ، ج ١ ص ٥٩١.

(2) سورة التوبة الآية (٦).

(3) ابن المنير: الإنصاف بهامش الكشاف ، تعليقاً ، ج ١ ، ص ٥٩١.

وقال بعضهم وكلّم الله معناه وجرح الله موسى بأظفار المحن ، ومخالب الفتن، وهذا تفسير باطل.[1]

وهكذا يتلاعب المعتزلة باللغة ويتأولون الآيات ويلوون أعناقها في تعسف حتى تنسجم مع مذهبهم الاعتزالي.

٦) نماذج من التأويل عند الشيعة*:

غرق الشيعة في بحار التأويل وذهبوا فيه كل مذهب فهناك مذهب عمد إلى التشخيص في التأويل فصرف الآيات أو الأحاديث إلى أشخاص معينين من ذلك مثلاً تأويل بعض رجال الشيعة لقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ۞بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ۞فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۞يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[2] لقد أولوا "البحرين" على أنهما علي بن أبي طالب وفاطمة زوجته بنت النبي ﷺ . وأوّلوا "البرزخ" على أنه النبي محمد ﷺ بمعنى أنه جسر يصل بين علي ابن عمه وفاطمة ابنته. وأولوا "اللؤلؤ

---

[1] الفخر الرازي: التفسير الكبير (مج ١١-١٢) ، ج ١١ ، ص ١٠٩.

* الشيعة: هم اللذين شايعوا عليا -رضي الله عنه- وقالوا انه الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده. الجرجاني: التعريفات ، ٦٨. وأضاف الشهرستاني بأنهم هم الذين قالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية – أنظر الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٩٥ بهامش كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم.
والشيعة فرق عديدة: منها المعتدل كالإمامية والزيدية ومنها المغالي المغرق في الغلو إلى درجة الكفر كما عدهم كثير من المؤلفين: انظر الشيخ محمد أبو زهره: تاريخ المذاهب الإسلامية ، ط دار الفكر العربي ، ص ٨.

[2] سورة الرحمن الأيتان (١٩-٢٢).

والمرجان" على أنهما الحسن والحسين ابنا علي وفاطمة بناء على أنه كما يخرج اللؤلؤ والمرجان من البحرين خرج الحسن والحسين من فاطمة ، وهكذا يكون المعنى "الباطن" للآيات المذكورة هو: أن الله جعل عليا وفاطمة يلتقيان بواسطة محمد ﷺ ليكون من زواجهما الحسن والحسين. والهدف السياسي من هذا النوع من التأويل واضح ، وهو "إثبات" أن القرآن يشير أو ينصّ بطريق الرمز على أن الخلافة والإمامة بعد النبي لعلي ونسله من فاطمة. وشبيه بهذا ما يروى عن جعفر الصادق الإمام الشيعي السادس من أنه فسّر آية النور كما يلي: "الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة: فاطمة ابنة النبي ﷺ فيها مصباح ، المصباح في زجاجة: الحسن والحسين الزجاجة كأنها كوكب دري: كأن فاطمة كوكب دري بين النساء ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة: من النبي إبراهيم عليه السلام ، لا شرقية ولا غربية: لا يهودية ولا نصرانية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار: يكاد العلم يتفجر منها، نور على نور: إمام منها بعد إمام ، يهدي الله بنوره من يشاء: يدخله في نور ولا يتهم"(١).

وإذا كان الاثنا عشرية* صرفوا المعنى إلى الأشخاص فإن التأويل الإسماعيلية** يصرف المعنى إلى فلسفتهم الدينية الهرمسية ، يقول إخوان

---

(١) د. مصطفى كامل الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع ، القاهرة دار المعارف ١٩٦٩ ، ص ٤٢٤.

* الاثنا عشرية: فرقة شيعية تقول بسلسلة الأئمة الإثني عشر ومن كونهم اثني عشر جاءت تسمية هذه الفرقة ، وتحصر الإمامة في أبناء علي من فاطمة والثاني عشر اختفى وهو حي لا يموت.

الصفاقي في تأويلهم لآية: الله نور السماوات والأرض ، مثل نـــوره: يعنـــي العقل الكلي ، كمشكاة: يعني النفس الكلية المنبعثة منه، المضيئة بنور العقـــل الكلي ، كما تضيء المشكاة بنور المصباح المشرق بنور الله ، فيها مصباح : المصباح في زجاجة: الزجاجة هي الصورة الأولى (الهيولي الأولى) الشـفافة المضيئة بما سرى فيها من فيض النفس عليها الفيض العقل -الكلـــي- علـــى النفس -الكلية- أنها كوكب دري: هو الصورة المجردة بالأنواع الذاتية يوقـــد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية: تكاد النفس الكلية ... تعطـــي الحياة والحركة لجميع الموجودات كوقود المصابيح: لا شرقية ولا غربية بـــل مبدعة بأمر الله عز وجل لا مركبة ولا مؤلفة ، يكاد زيتها يضيء ولـــو لـــم تمسسه نار ، نور على نور: تكاد للطافتها وشرفها (النفس الكلية) تكون عقـــلاً (كلياً) ولو لم يتصل بها. فلما أمدها بخيراته كان "نور على نور" كذلك نـــور العقل فوق نور النفس يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للنـــاس. ولذلك كانت النار هي أجل الأشكال وأعظم الأمثال المتصلة بالنور ، ولذلـــك امتحن إبليس حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1] وذلك أن النار

** الإسماعيلية: فرقة شيعية تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق: لها آراء امتزجت بـــالتراث الشرقي القديم. انظر: أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية و محمد عمـــارة: تيـــارات الفكر الإسلامي، ص ٣٢٢.

[1] سورة ص الآية (٧٦).

تتحرك إلى العلو بالطبع والطين هو الجماد والتراب يتحرك إلى الأسفل بالطبع[1]

وهكذا أن نفس الآية التي أولت من قبل تأويلا شيعيا باطنياً يصرف معناها إلى أشخاص معينين (علي ، فاطمة ، الحسن ، الحسين) تؤول هنا تأويلاً باطنياً أيضاً يصرف معناها إلى تصورات ميتافيزيقية تتعلق بالإله المتعالي والعقل الكلي والنفس الكلية.

ولقد بالغ الباطنية* في التأويل: فأولوا الضوء بمولاة الإمام والتيمم هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجة والصلاة عبارة عن الناطق الذي هو الرسول بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾[2]، والغسل تجديد ا لعهد ممن أفشى سراً من أسرارهم من غير قصد، وإفشاء السر عندهم على هذا النحو هو معنى الاحتلام والزكاة عبارة عن تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين والكعبة النبي والباب علي، والصفاء هو النبي والمروة علي والميقات الإيناس والتلبية إجابة الدعوة ،

---

(1) إخوان الصفا: الرسالة الجامعة لإخوان الصفا وخلان الوفاء ، ج ٢ ، ص ٢٩٣.

* الباطنية: فرقة من الشيعة: سموا الباطنية لاتجاههم إلى الاستخفاء عن الناس الذي كان وليد الاضطهاد ، ثم صار حالاً نفسية عند طوائف منهم. وقد سموا كذلك لأن إمامهم مستور. وهذا المذهب ينتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتسمى باسمه الإسماعيلية ومنهم إخوان الصفا كتاب الرسائل المعروفة باسم رسائل إخوان الصفا: انظر أبو زهرة تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص ٥١.

(2) سورة العنكبوت الاية (٤٥).

والطواف بالبيت سبعاً موالاة الأئمة السبعة والجنة راحة الأبدان من التكاليف ، والنار مشقتها بمزاولة التكاليف[1].

وتأولوا أنهار الجنة فقالوا أنهار من لبن أي معادن العلم... اللبن العلم الباطن يرتضع بها أهلها، وتغذى بها تغذياً تدوم بها حياتهم اللطيفة ، فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم، كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدي الأم. وأنهار من خمر هو العلم الظاهر ، وأنهار من عسل مصفى هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأدلة[2].

٧) نماذج من التأويل عند بعض الأشعرية* والماتريدية**:

سلك الأشعرية والماتريدية منهجاً وسطاً بين موقف السلفية وموقف المعتزلة: منهجاً يرى في تنزيه "المعتزلة" للذات الإلهية "تعطيلاً" وفي تشبيه "الحشوية" للذات الإلهية تجسيداً وتجسيماً.

---

(١) المواقف: للايجي: شرح السيد الشريف مطبعة السعادة ، سنة ١٩٠٧ ، ج ٨ ، ص ٣٩٠.

(٢) الغزالي (أبو حامد): فضائح الباطنية ، ص ١٣.

* الأشعرية: تنسب إلى مؤسسها: الأشعري ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي مجردة بن أبي موسى الأشعري (٢٦٠ هـ - ٣٢٤) ولد بالبصرة ثم انتقل إلى بغداد حياته حافلة بالمناظرات والجدل والتأليف ورأب الصدع بين أهل الحديث والمعتتزلة وابتكر منهجاً كلامياً وسطاً لا يرفض الكلام كلية اكتفاء بالنصوص ولا ينحاز إلى العقل على نحو ما سار إليه المعتزلة. من مؤلفاته مقالات الإسلاميين – الإبانة – اللمع.

** الماتريدية: أتباع أبي منصور المتريدي: الجناح الثاني لأهل السنة كان في المنزلة الوسطى بين أهل الحديث وبين المعتزلة (توفي سنة ٣٣٣ هـ) يختلف مع الأشعري في بعض المسائل قيل سبعة وقيل أكثر. من مؤلفاته: تأويلات أهل السنة. وكتاب التوحيد.

وهم يرون في نفور السلفية النصوصية من العقل ونفور الفلاسفة من النقل ، فيريدون التوسط بين العقل والنقل على نحو يعلي سلطان النقل على العقل في كثير من الأحايين.

وهم يرون الجبرية الخلص ينكرون أن يكون للعبد في أفعاله شيء ، فهو عندهم كالريشة في مهب الريح ، ويرى المعتزلة أن الإنسان حر مختار خالق لأفعاله على سبيل الحقيقة لا المجاز فيتقدمون بنظريتهم في "الكسب" طريقاً وسطاً بين الفريقين. فيميزون بين الفعل الجبري والفعل الاختياري للإنسان ، ويثبتون للإنسان قدرة واستطاعة مع الفعل ، وإن كان تأثيرها في -رأيه- لا يرقى إلى درجة الخلق والأحداث.

وهم يرون من يثبت رؤية الله بالإبصار على نحو يحدد الله ويجسمه ، بينما المعتزلة ينكرون الرؤية البصرية بإطلاق... فيقولون برؤية بصرية من غير تحديد ولا تجسيم.

وهم يرون السلف لا يؤولون الآيات التي يوحي ظاهرها بشبه بين الله والمخلوقات ، وذلك دون أن يخوضوا في معناها ، أو ينزهوا الله عن شبه المخلوقات ، ثم يرفضون تأويل المعتزلة لهذه الآيات ، ويقولون بإثبات الوجه واليدين والاستواء على العرش لله سبحانه وتعالى لكن بلا كيف ، فيُثبِتون لكن دون تشبيه[١].

---

[١] د. محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامي ، ط دار الهلال ١٩٨٢ ، ص ٢٥٦.

ويؤولون قوله تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ بمعنى قدرته فوق قدرة البشر. ﴿والرحمن على العرش استوى﴾ بمعنى بسط نفوذه واستوت سلطته على ملكه[1].

بينما السلف يتوقفون مثلما قال مالك -رضي الله عنه- في هذه الآية: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة. وهكذا التوسط والتوفيق عند الأشعرية والماتريدية بينما عند السلفية يتجلّى المحافظة الشديدة وعدم المجازفة في تأويل النصوص.

٨) نماذج من التأويل عند بعض الصوفية*:

أغرق الصوفية في تأويل القرآن إغراقاً ذهبوا فيه مذاهب شتى. فمنهم المعتدل الذي جنح إلى معان محتملة للنص القرآني ومنهم من جنح وشطح شطحات بعيدة المعنى حتى رمي بالمروق والزندقة. وسأقتصر في النماذج التي سأعرضها على المعتدل من تأويلهم.

---

(١) د. جلال محمد عبد الحميد موسى: نشأة الأشعرية وتطورها. ط بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢٠٩.

* الصوفية: هناك اختلاف في أصل كلمة صوفية. فمنهم من أرجعها إلى الصوف لأن هذه الطائفة غلب عليها لبس الصوف تقشفاً ، وقيل أنها مشتقة من الصفا. وقيل أنها مشتقة من أهل الصفة فقراء الصحابة وغير ذلك ، وأما معنى التصوف فهو رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة. انظر: ابن الجوزي جمال الدين: تلبيس إبليس ص ١٦١ ، وانظر: الكلاباذي (ت ٣٨٠ -٩٩٠) محمد بن إبراهيم الكلاباذي البخاري: التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق محمود أمين النووي ، مكتبة الكليات الأزهرية، ط ٢ ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ ، ص ٢٩.

يقول الحارث بن أسد المحاسبي: "لكل آية من كتاب الله ظهر وبطن وحد ومطلع ، أما ظاهرها فتلاوتها وأما باطنها فتأويلها ، وأما حدها فمنتهى فهمها، وأما مطلعها فمجاوزة حدّها بالغلو والتعمق والفجور والمعاصي".

ويقول القشيري في خطبة كتابه: "الحمد لله الذي شرح قلوب أوليائه بعرفانه ، وأوضح نهج الحق بلائح برهانه لمن أراد طريقه، وأتاح البصيرة لمن ابتغى تحقيقه، وأنزل الفرقان هدى وتبياناً على صفيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله معجزة وبياناً وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله ورزقهم الإيمان بمحكمه متشابهه وناسخه ومنسوخهِ ووعده ووعيده وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشارته وخفي رموزه بما لوّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما قضوا به من أنوار الغيب على ما استتر من أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق سبحانه وتعالى يكرمهم فهم ما به عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحكم إليه في جميع ما يأتون به ويذرون"(١).

ومن نماذج تأويلهم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (٢).

---

(١) القشيري (عبد الكريم هوازن): لطائف الإشارات ، تحقيق إبراهيم بسيوني ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨١ ، ج ١ ، ص ٤١.

(٢) سورة النساء الآية (٦٦).

يقول محمد بن الفضل: ﴿اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ بمخالفة هواها ﴿أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم﴾ أي أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم "ما فعلوه إلا قليل منهم" في العدد، كثير في المعاني وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة.(١)

ومن ذلك تأويلهم لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ (٢) يقول: "قال بعضهم: أنزل مياه الرحمة من سحائب القربة، وفتح إلى قلوب عباده عيونا من ماء الرحمة ، فأنبتت، فاخضرّت بزينة المعرفة، وأثمرت الإيمان، وأينعت التوحيد، أضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها، واشتاقت إلى ربها فطارت بهمتها، وأناخت بين يديه، وعكفت فأقبلت عليه، وانقطعت عن الأكوان أجمع، إذ ذاك رآها الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها الخيرة في بساتين الأنس، ورياض الشوق والقدس"(٣).

ومن ذلك قوله بصدد الآية ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾(٤)، أي ويقال من المعاني العرفانية التي تحملها الآية: "نور في البداية هو نور العقل ونور في الوسائط هو نور العلم ونور في النهاية هو

(١) محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون ، ط دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٣ ، ج ٣ ، ص ٥١.
(٢) سورة الحج الآية (٦٢).
(٣) الذهبي: التفسير والمفسرون ، ج ٣ ، ص ٥٤.
(٤) سورة الأنعام الآية (١٢٥).

نور العرفان فصاحب العقل مع البرهان وصاحب العلم مع البيان وصاحب المعرفة في حكم البيان"[1].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[2].

يقول القشيري: لا تكون عمارة المساجد إلا بتخريب أوطان البشرية، "فالعابد يعمرها بتخريب أوطان شهوته والزاهد يعمرها بتخريب أوطان منيته، والعارف يعمرها بتخريب أوطان علاقته، والموحد يعمرها بتخريب أوطان ملاحظته ومساكنته ، وكل واحد منهم واقف في صفته، فلصاحب كل موقف منهم وصف مخصوص، وكذلك رتبهم في الإيمان مختلفة، فإيمان من حيث البرهان وإيمان من حيث البيان، وإيمان من حيث العيان، وشتّان ما هم"[3].

ويقال بصدد قوله تعالى في آية النور: (نور على نور): "نور اكتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم، ونور وجدوه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم، أو عيان أضافه إلى بيانهم، فهو نور على نور"[4].

ويقال بصدد قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾[5]: أي ذات الألوان كل يجتني منه لوناً على قدر سعته وما كشف له من بوادي

---

(1) القشيري: لطائف الإشارات ، ج ٢ ، ص ١٤

(2) سورة التوبة الآية (١٨).

(3) القشيري: لطائف الإشارات ، ج ٢ ، ص ١٤.

(4) المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٦١٢

(5) سورة الرحمن الآية (١١).

المعرفة وآثار الولاية[1] ، وفي سورة النصر قال ابن عطاء الله عند قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ "أي إذا أشغلك به عما دونه فقد جاءك الفتح من الله تعالى والفتح هو النجاة من السجن البشري بلقاء الله تعالى"[2].

٩) نماذج من التأويل عند بعض الفلاسفة الإسلاميين:

الفلاسفة الإسلاميون غرقوا في بحور التأويل وأولوا القرآن الكريم على مقتضى آرائهم الفلسفية.

فمن تأويلات (الفارابي)*:

فقد فسّر قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾[3]: إنه "الأول من جهة أنه منه ويصدر عنه كل موجود لغيره، وهو أول من جهة أنه أول بالوجود لغاية قربه منه، وأول من جهة أن كل زمان ينسب إليه بكون، فقد وجد زمان لم يوجد معه ذلك الشيء، ووجد إذ وجد معه لا فيه، هو أول لأنه إذا اعتبر كل شيء فيه كان فيه أولاً أثره، وثانياً قبوله لا بالزمان، هو آخر لأن الأشياء إذا لوحظت ونسبت إليه أسبابها ومبادئها وقف عند المنسوب، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية في كل طلب، فالغاية مثل السعادة في قولك: لم شربت الماء؟ فتقول: لتغيير المزاج، فيقال: ولم أردت أن يتغير المزاج؟ فتقول: للصحة، فيقال: لم طلبت الصحة؟ فتقول للسعادة والخير ثم لا يورد عليه سؤال يجب أن يجاب

---

(١) الذهبي: التفسير والمفسرون ، ج ٣ ، ص ٥٥.

(٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٥.

* الفارابي (أبو نصر): (ت ٩٥٠م): الواضح الحقيقي للأفلاطونية في الإسلام ، من مؤلفاته آراء أهل المدينة الفاضلة ، وإحصاء العلوم ، ونصوص الحكم. انظر: دراسات في الفكر العربي لماجد فخري ، ص ٦٢.

(٣) سورة الحديد الآية (٣).

عنه، لأن السعادة والخير يطلب لذاته لا لغيره... فهو المعشوق الأول، فلذلك هو آخر كل غاية، أول في الفكر آخر في الحصول هو آخر من جهة أن كل زمان يتأخر عنه، ولا يوجد زمان متأخر عن الحق"[1].

فهو يفسّر الأول والآخر تفسيراً أفلاطونياً مبنياً على القول بقدم العالم كما يفسر قوله تعالى: (... والظاهر والباطن) من نفس الآية فقال "لا وجود أكمل من وجوده فلا خفاء به من نقص الوجود فهو في ذاته ظاهر، ولشدة ظهوره باطن، وبه يظهر كل ظاهر كالشمس تظهر كل خفي وتستطبن لا عن خفاء"[2].

وقد سلك ابن سينا نفس مسلك الفارابي حيث حاول في تأويله لبعض آي القرآن إخضاع القرآن للفلسفة ولنظرياتها.

فقد نظر إلى القرآن ونظر إلى الفلسفة، وأراد التوفيق بينهما فلم يحالفه التوفيق ذلك أنه حكم النظريات الفلسفية في النصوص القرآنية فشرحها شرحاً فلسفياً بحتاً، وكان منهجه شرح الحقائق الدينية بالآراء الفلسفية غالباً لأنه كان يعتقد أن القرآن ما هو إلا رموز، رمز به النبي صلى الله عليه وسلم لحقائق تدق على إفهام العامة، عجزت أفهامهم عن إدراكها، فرمز إليها النبي صلى الله عليه وسلم بما يمكنهم أن يدركوه، وأخفى عنهم ما يعجز عن إدراكه عامة الناس إلا الخواص منهم.

---

(1) الفارابي (أبو نصر): فصوص الحكم ضمن المجموع من مؤلفات الفارابي، ص ١٧٤-١٧٥

(2) الفارابي: نصوص الحكم، ص ٧٠

ويذكر جملة من الآيات تفسيراً فلسفياً بعيداً عن الهدف القرآني وعن المعاني المرادة من آياته، فنجد في تأويله لقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾(1) يقرر أن النفس الحيوانية هي الباقية الدائمة في جهنم، وهي منقسمة إلى قسمين: إدراكية عملية، والعملية: شوقيه وغضبيه، والعملية: هي تصورات الخيال المحسوسات بالحواس الظاهرة، وتلك المحسوسات ستة عشر، وواحدة، تسعة عشر: ثم يقول: وأما قوله: (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) فمن العادة في الشريعة تسمية القوى اللطيفة غير المحسوسة ملائكة(2).

التأويل عند ابن رشد:

إن قضية التأويل بين العقل والنقل أو بين الحكمة والشريعة كان مثاراً للنقاش على امتداد التاريخ حتى اليوم، فهناك مذاهب فكرية إسلامية ترفع منزلة النص فوق أي اعتبار آخر وهناك مذاهب إسلامية ترفع من منزلة العقل.

ولكن ابن رشد يطرح القضية في كتابه "فصل المقال لما بين الشريعة والحكمة من الاتصال" يقول: وإذا كنا نعتقد أن شريعتنا الإلهية حق، وإذا كانت هذه الشريعة حقاً وداعيةً إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق، فإننا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له"(3).

---

(1) سورة المدثر الآية (30).

(2) ابن سينا: الرسائل ، ص 131-132.

(3) ابن رشد: فصل المقال: ص 34-35.

ومعنى التأويل عند ابن رشد هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة[1] الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز من:

١- تسمية الشيء بشبيهه.
٢- تسمية الشيء بسببه.
٣- تسمية الشيء بلاحقه.
٤- تسمية الشيء بمقاربه.

مفاتيح لقراءة النص:

هنا محطات أسسها ابن رشد تساعد على قراءة النص:

- الحقيقة واحدة، مصدرها واحد، وغايتها واحدة، وإن اختلفت الوسائل للوصول إليها.
- إن التعارض بين الشريعة والعقل، تعارض عرضي وليس جوهرياً، بل ظاهري وليس باطنياً.
- التأويل هو الآلية الشرعية لحل مشكلة التعارض إذا ما حدث خلاف بين ماجاء به الشرع وما يدركه العقل.
- النظر البرهاني آلية الفلسفة في فهم الموجودات ولا تقل شأناً عن القياس الشرعي الذي يستخدمه الأصوليون الفقهاء في استنباط الأحكام من النصوص.

وحدة الحقيقة عند ابن رشد[2]:

---

[1] د. محمد العربي: ابن رشد وفلاسفة الإسلام من خلال فصل المقال وتهافت التهافت ، ط ١ دار الكتاب اللبناني ، ١٩٩٢ ، ص ٤٨.

[2] د. محمد العربي: ابن رشد وفلاسفه الإسلام ، ط دار الكتاب اللبناني ، ص ٤٠-٤١

الشريعة تدعو إلى النظر العقلي المؤدي إلى معرفة الحق:

١- النص القرآني في حق.

٢- هذا النص القرآني يدعو إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق.

٣- النظر البرهاني المؤدي إلى معرفة الحق هو القياس الارسطي بأنواعه الذي يتضمنه علم المنطق. وهو يختلف عن القياس الشرعي الذي يستخدمه الفقهاء والأصوليون وهو استخراج المجهول من المعلوم عن طريق العلة. والأول أرقى من الثاني، لأن الأول يقيني والثاني ظني.

٤-الحق الذي يؤدي إليه النظر البرهاني هو الحق بالمفهوم الفلسفي للوجود بكل أنواعه وصوره وهي نفس الموجودات التي يتحدث عنها الشرع. وهنا يبدو خطأ ابن رشد إذ يرفع من منزلة الفلسفة ويُعدّ أحكامها يقينية بينما يعدّ الأحكام في المصادر الأخرى ظنية.

وبعد أن أكد ابن رشد عدم التضاد بين الحقيقة الشرعية والحقيقة العقلية ووحدة مصدرهما ووحدة غايتهما وضع آلية لحل القضايا ذات الإشكاليات في حالة حدوثها بين النظر البرهاني والنص القرآني وهي آلية التأويل.

وهناك ما يجوز تأويله وما لا يجوز تأويله وقد وردت كلمة التأويل في فصل المقال حوالي ١١٠ مرة بين فعل وصفة واسم ، مما يبين أهمية هذه الكلمة في كتاب فصل المقال الذي لا تزيد صفحاته على الـ ٤٠ صفحة.

اصناف الناس وعلاقتهم بالتأويل:

يقسم ابن رشد الناس على ثلاث مستويات بحسب مواقفهم من التأويل.

الصنف الأول: ليس هو من أهل التأويل أصلاً وهم الخطابيون الذين هم الجمهور الغالب وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل يعرى من هذا النوع من التصديق.

الصنف الثاني: من أهل التأويل الجدلي، وهؤلاء هم الجدليون بالطبع فقط أو بالطبع والعادة وهم الأشعرية والمعتزلة.

الصنف الثالث: وهو من أهل التأويل اليقيني، وهم البرهانيون بالطبع والصناعة أعني صناعة الحكمة.

لا ينبغي التصريح بالتأويل للجمهور:

لأن التأويل لا ينبغي أن يصرح به لأهل الجدل فضلاً عن الجمهور، ومتى صرح بشيء من هذه التأويلات إلى من هو من غير أهلها وخاصة التأويلات البرهانية لبعدها عن المعارف المشتركة، أفضى ذلك بالمصرح به والمصرح له إلى الكفر، وحين نتساءل عن السبب يرد ابن رشد: "لأن التأويل يتضمن شيئاً من إبطال الظاهر وإثبات المؤول، فإذا أبطل الظاهر عند من هو من أهل الظاهر، ولم يثبت المؤول عنده أداه ذلك إلى الكفر إن كان في أصول الشريعة"[1].

ويضيف مناقشاً للغزالي يقول: "فالتأويلات ليس ينبغي أن يصرح بها للجمهور ولا أن تثبت في الكتب الخطابية أو الجدلية، أعني الكتب التي تكون الأقاويل الموضوعة فيها من هذين الجنسين كما صرح بذلك أبو حامد الغزالي.

وإذا سئل ابن رشد عن الطريقة المثلى لتعليم الجمهور بعيداً عن التأويل يجيب "إن الأقاويل الشرعية المصرح بها في الكتاب العزيز للجميع لها ثلاث خواص دلت على الإعجاز:

إحداها: إنه لا يوجد أتمّ إقناعاً وتصديقاً للجميع منها.

والثانية: إنها تقبل النصرة بطبعها إلى أن تنتهي إلى حدّ لا يقف على التأويل فيها إن كانت مما فيها تأويل إلا أهل البرهان.

والثالثة: إنها تتضمن التنبيه لأهل الحق على التأويل الحق ويضيف منتقداً المتكلمين نقداً عنيفاً: "هذه الخواص الثلاثة لا توجد لا في مذاهب الأشعرية ولا في مذاهب المعتزلة: أعني أن تأويلهم لا يقبل النصرة ولا يتضمن التنبيه على الحق ولا هو حق ولذلك كثرت البدع".

وإذا كان لنا من نقد على ابن رشد الذي قدم رؤية شاملة متكاملة عن التأويل هو أنه جعل للفلسفة منزلة تعلو غيرها من المنازل وجعل أحكامها يقينية.

ورغم أن ابن رشد فقيه وقاض إلا أنه شارح أرسطو وقد تأثر به وعجب به أيما إعجاب مما جعله يبالغ في الاعتداد بآرائه والانزلاق وراء أحكامه مما جلب له كثيراً من المتاعب والانحراف أحياناً.

الخاتمة

إن بحث التأويل عند الفرق الإسلامية يكشف لنا بوضوح قدرة الفكر الإسلامي على التأويل والاستنباط للأحكام الشرعية والآراء الاعتقادية ولم يقف مفكرو الإسلام مكتوفي الأيدي أمام النصوص لا يستخرجون منها كنوزها وحلولها لمختلف المشاكل الحضارية بل عمدوا إلى استلهام الحلول منها لمختلف المشاريع الحضارية فأوّلوا وأبدعوا في نواح من الفكر، وأخفقوا عندما بالغوا في التعصّب للمذهب أو الفرقة.

وحقاً فإن بعض الاتجاهات الفكرية في الإسلام بالغت في هذا التأويل حتى ابتعدت عن روح الشريعة.

وما ينبغي علينا نهجه اليوم هو استنباط في غير إسراف في التأويل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1].

---

(1) سورة آل عمران الآية (٧).

المصادر والمراجع

- إبراهيم بن حسن بن سالم: فقيه التأويل في القرآن الكريم بين المعتدلين والغلاة ، ط دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – دمشق ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.
- أبو يعقوب السجستاني: الينابيع. ط دار المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر – بيروت ١٩٦٥.
- أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوى مكتبة المعارف الرباط - المغرب.
- ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة، ط مصر ، دون تاريخ.
- ابن الجوزي (جمال الدين): تلبيس إبليس، مطبعة النهضة – مصر ١٩٢٨.
- ابن تيمية (أحمد): مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن شرف الدين، ط بمباي، الهند ١٩٥٦/١٣٧٤.
- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، طبع ونشر، المطبعة السلفية.
- ابن رشد (أبو الوليد): فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال. المطبعة الكاثوليكية – بيروب بدون تاريخ.
- ابن سينا (أبو علي): رسائل ابن سينا، ط الهند ١٩٠٨
- ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، ط ثانية -- ١٣٨٨ هـ، المطبعة السلفية – المدينة المنورة.
- ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، ط ثانية، المطبعة السلفية - المدينة المنورة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م.

- ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين، ط دار الجيل – بيروت ١٩٧٣.
- ابن كثير (الحافظ): تفسير القرآن العظـــي، ط دار الشـــعب، دون تاريخ.
- ابن منظور: لسان العرب المحيط، ط ونشر دار لســـان العـــرب – بيروت ، بدون تاريخ.
- الإبانة المطبعة السلفية – القاهرة ١٣٨٥ هـــ.
- الأسفراييني: التبصر في الدين، تحقيق زاهد الكوتــــري، مطبعــة المنار ١٩٤٠.
- الأشعري (أبو الحسن): مقالات الإسلاميين واختـــلاف المصليــن، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط النهضة المصرية ١٩٥٠.
- الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط درا إحياء التراث العربي – بيروت، لبنان.
- الجرجاني (أبو الحسن علي بن محمد ت ٨١٦ هـ): التعريفــــات، باب التاء، ط الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧١ م.
- الذهبي (محمد حسين): التفسير والمفسرون، ط دار الكتب الحديثــة – القاهرة ١٣٨١ هـــ- ١٩٦٢ م.
- الذهبي: تاريخ الإسلام، ط مكتبة المقدسي – القاهرة ١٣٦٨ هـــ.
- الرازي (فخر الدين): التفسير الكبـــير، ط دار الكتــب العلميـــة – طهران، بدون تاريخ.
- الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد بن الفضل): المفردات فـــي غريب القرآن، مادة (تأويل).

الزمخشري (محمود جار الله): الكشاف، الناشر دار الكتاب العربي - بيروت، لبنان، ط دار الكتاب العربي وبهامشه الإنصاف لابن المنير

السيوطي (جلال الدين): الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الناشر محمد أمين، دون تاريخ – المطبعة السلفية.

الشاطبي: الموافقات، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط القاهرة، بدون تاريخ.

الشهرستاني (عبد الكريم): الملك والنحل على هامش الفصل لابن حزم، نشر دار الكتاب اللبناني، بدون تاريخ.

الغزالي (أبو حامد): فضائح الباطنية طبعة ليدن ١٩١٦.

الفارابي (أبو نصر): فصوص الحكم ضمن المجموع من مؤلفات الفارابي.

الفيروزبادي: تاج العروس من جواهر النفوس "شرح القاموس المحيط" ط ١، المطبعة الخيرية – مصر ١٣٠٦ هـ - ١٣٠٧ هـ.

القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، ط مكتبة وهبه ١٩٦٥.

القشيري (عبد الكريم بن هوازن) الرسالة القشيرية، ط دار الفكر العربي – بيروت. لطائف الإشارات تحقيق إبراهيم بسيوني، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨١ م.

الكلاباذي (أبو بكر): التعرف لمذهب أهل التصوف تحقيق محمود أمين النووي، ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩م.

📖 اللمع في الرد على أهل الأهواء والبدع تحقيق حمودة غرابـــة، ط مكتبة الخانجي – القاهرة ١٩٥٠.

📖 الماتريدي (أبو منصور): تأويلات أهل الســـنة، تحقيـق إبراهيـم عوضين، ط مصر.

📖 تهافت التهافت: تحقيق سليمان دنيا، ط مصر.

📖 د. جلال محمد موسى: نشأة الأشعرية وتطورها، ط مصر ١٩٧٥.

📖 د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلســفي فــي الإســلام، ط دار المعارف – مصر ١٩٦٦ م.

📖 د. عمار الطالبي: آراء الخوارج الكلاميـــة، ط: شــركة التوزيــع والنشر – الجزائر ١٣٧٨-١٩٧٨.

📖 د. محمد العربي: ابن رشد وفلاسفة الإسلام من خلال فصل المقال.

📖 د. محمد خليل الهراس: شرح النونية، مطبعة الإمام – ط القــاهرة، دون تاريخ.

📖 د. محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامي، ط دار الهلال مصر ١٩٨٢.

📖 د. مصطفى كامل الشيبي: الصلة بين التصــوف والتشــيع، ط دار المعارف – القاهرة ١٩٦٩م.

📖 رسائل إخوان الصفا – المطبعة العربية – بمصر سنة ١٣٤٧ هــ – ١٩٢٨م.

📖 عضد الدين الايجي: المواقف – شرح الشريف، مطبعة الســعادة، سنة ١٩٠٧.

📖 كتاب التوحيد، تحقيق د. فتح الله خليفة، ط المطبعة الكاثوليكية ١٩٧٠.

📖 ماجد فخري: دراسات في الفكر العربي، ط دار النـــهار بيروت ١٩٧٧.

📖 محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ط دار الفكر العربـــي، مصر دون تاريخ.

📖 مناهج الأدلة في عقائد الملة: تحقيق محمود قاســـم، ط ٢، مكتبـــة الانجلو المصرية، ١٩٦٤.

📖 وتهافت التهافت، تحقيق سليمان دنيا، ط ١ دار الكتاب اللبنـــاني بيروت، ١٩٩٢.

📖 يوليوس فلهاوزن: أحزاب المعارضة في صدر الإسلام: ال... والشيعة، ط مصر دون تاريخ.